

## عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

### المحاضرة ١٨: الخلق الدائى، الجزء ١

أ.ر.سي. سبرول

نُتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِ عَنِ الْإِيمَانِ. تَنَاوَلْنَا فِيمَا سَبَقَ الْبَدَائِلَ الْمُحْتَمَلَةَ لِتَفْسِيرِ الْوَاقِعِ الَّذِي نَرَاهُ. وَتَذَكَّرُونَ أَنَّنَا سَرَدْنَا الْحُجَجَ الْأَرْبَعَ الرَّئِيسِيَّةَ لِتَفْسِيرِ وُجُودِ الْكَوْنِ الَّذِي نَعْرِفُهُ: الْأَوَّلَى هِيَ الْوَهْمُ؛ وَالثَّانِيَّةُ هِيَ الْخَلْقُ الدَّائِي؛ وَالثَّالِثَةُ هِيَ ذَاتِيَّةُ الْوُجُودِ؛ وَالرَّابِعَةُ هِيَ الْخَلْقُ بِوَاسِطَةِ شَيْءٍ ذَاتِي الْوُجُودِ.

وَدَكَرْنَا أَيْضًا أَنَّ الْإِحْتِمَالَيْنِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ يَحْمِلَانِ فِكْرَةَ وُجُودِ كَائِنٍ ذَاتِي الْوُجُودِ. سَنَتَطَرَّقُ إِلَى ذَلِكَ لِأَحِقًّا. لَكِنِ عَلَيْنَا تَنَاوُلَ الْإِحْتِمَالَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي قَبْلَ الْإِنْتِقَالِ إِلَى الْإِحْتِمَالَيْنِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ. وَسَبَقَ أَنْ اسْتَبَعَدْنَا ذَلِكَ الْإِحْتِمَالَ، مُسْتَعْدِمِينَ بِالتَّأَكِيدِ طَرِيقَةَ تَفْكِيرِ دِيكَارْتِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى وَعْيِ الْبَالِدَاتِ.

نَصِلُ الْآنَ فِي دِرَاسَتِنَا إِلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي، الَّذِي لَيْسَ هُوَ الْبَدِيلَ الْوَحِيدَ لِلْإِيمَانِ الْقَوِيِّ بِوُجُودِ اللَّهِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمُلْحِدُونَ، لَكِنَّهُ حَتْمًا الْبَدِيلَ الْأَكْثَرُ شُيُوعًا الَّذِي يُقَدِّمُهُ مُعَارِضُو الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ. مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُهُمْ وَيَقُولَ إِنَّ الْكَوْنَ مَخْلُوقٌ ذَاتِيًّا. لَكِنِّي أَسْتَحْدِمُ هَذَا كَمَبْدَأٍ عَامًّا، نُدْرِجُ تَحْتَهُ أَنْوَاعًا مُتَعَدَّدَةً وَمُخْتَلِفَةً مِنْ مَفْهُومِ الْخَلْقِ الدَّائِي، بِحَيْثُ حَتَّى إِنْ لَمْ يُصْرَحِ النَّاسُ بِأَنَّ هَذَا مَا يَقْصِدُونَهُ، سَنَكُونُ مُنْصِفِينَ إِنْ قُلْنَا إِنَّ مَفْهُومَهُمْ يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ الدَّائِي. دَعُونِي أَوْضَحُ ذَلِكَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ.

قَبْلَ أَنْ أَتَنَاوَلَ الْأَشْكَالَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ هَذَا الْمَفْهُومِ، دَعُونِي أَصْرَفُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي تَنَاوُلِهِ مِثْلَمَا كَتَبْتُهُ. فَفِكْرَةُ الْخَلْقِ الدَّائِي هِيَ مَفْهُومٌ نَقُولُ فِي الْفَلَسَفَةِ إِنَّهُ خَاطِئٌ تَحْلِيلِيًّا، أَيَّ خَاطِئٌ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ. مُجَدِّدًا، أَذْكَرُكُمْ بِأَنَّنا أَشْرْنَا فِي الْبِدَايَةِ إِلَى مَبَادِي الْمَعْرِفَةِ، أَوْ الْإِبِسْتِيمُولُوجِيَا، الْحَيَوِيَّةَ لِفَهْمِ أَيِّ حَقٍّ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ. وَذَكَرْتُ مَبَادِيَّ يَجِبُ أَلَّا نَتَفَاوَضَ بِشَأْنِهَا النَّبْتَةَ كَمُؤْمِنِينَ بِوُجُودِ اللَّهِ، لِأَنَّ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ الْإِيمَانَ بِوُجُودِ اللَّهِ سَيَرْفُضُونَ أَيْضًا وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مَبَادِي الْمَعْرِفَةِ هَذِهِ، مِثْلَ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَقَانُونِ السَّبَبِيَّةِ، إِلَى آخِرِهِ.

حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْخَلْقِ الدَّائِي، يَبْدُو وَاضِحًا أَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِلْعَقْلِ، لِأَنَّهُ كَيْ يَخْلُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، أَيَّ يَكُونُ نَتِيجَةً هُوَ نَفْسُهُ سَبَبُهَا، وَكَيْ يَخْلُقُ نَفْسَهُ، سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يُوْجَدَ قَبْلَ أَنْ يُوْجَدَ؛ أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، كَيْ يَخْلُقُ نَفْسَهُ، سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ. وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ أَيْضًا، سَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَأَلَّا يَكُونَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَدَاخِلَ الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا، مِمَّا يَنْتَهِكُ بِوُضُوحٍ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَيُدْرِجُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ فِي حَاثَةِ عَدَمِ الْعُقْلَانِيَّةِ

الْبَحْتَةِ. فَمُجَدِّدًا، كَيْ يَخْلُقَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْبِقَ نَفْسَهُ زَمَانِيًّا، أَيْ يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ. أَتَفْهَمُونَ ذَلِكَ؟ حَسَنًا، فِكْرَةُ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ هِيَ، بِحَسَبِ التَّحْلِيلِ الْمُنطِقِيِّ، فَرُضِيَّةٌ خَاطِئَةٌ.

قَبْلَ أَنْ نَتَابِعَ، دَعُونِي أَعْقِدُ مُقَارَنَةً بَيْنَ مَفْهُومِ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ، وَالْمَفْهُومِ الثَّالِثِ لِذَاتِيَّةِ الْوُجُودِ. فَالْقَوْلُ بِأَنَّ شَيْئًا ذَاتِيَّ الْوُجُودِ يَعْنِي أَنَّهُ أَرْزِيٌّ، وَأَنَّ لَدَيْهِ فِي ذَاتِهِ قُوَّةَ الْكَيْنُونَةِ، أَيْ إِنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ. وَمَنْطِقِيًّا، لَا يُوجَدُ مَا هُوَ مُنَافٍ لِلْعَقْلِ أَوْ غَيْرُ مَنْطِقِيٍّ فِي فِكْرَةِ ذَاتِيَّةِ الْوُجُودِ أَوْ الْوُجُودِ الْأَرْزِيِّ. فَعَلَى الْأَقْلَ، وَكَمَا سَرَى لِاحِقًا بِالتَّفْصِيلِ، هَذِهِ الْفِكْرَةُ مُحْتَمَلَةٌ مَنْطِقِيًّا، لِأَنَّهَا لَا تَنْتَهِكُ أَيًّا مِنْ قَوَائِنِ الْمُنطِقِ. فَوْضُفْ شَيْءٌ مَا بِأَنَّهُ ذَاتِيَّ الْوُجُودِ لَيْسَ انْتِهَاكَ لِأَيِّ مِنْ قَوَائِنِ الْمُنطِقِ. لَكِنَّ وَصْفَهُ فِي الْمُقَابِلِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ ذَاتِيًّا يَنْتَهِكُ الْعُقْلَانِيَّةَ وَقَوَائِنِ الْمُنطِقِ بِالْفِعْلِ، لِأَنَّهُ يَنْتَهِكُ قَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، كَمَا ذَكَرْتُ لَتَوَيِّ. وَلِهَذَا أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِشَيْءٍ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ.

أَعْتَقِدُ أَنِّي اسْتَخْدَمْتُ سَابِقًا مَثَلِ الْوَالِدَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا يَتَجَادَلَانِ حَوْلَ أَصْلِ الْأَشْيَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرَ: "مِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الْأَشْجَارُ؟" أَجَابَ الصَّبِيُّ "اللَّهُ خَلَقَ الْأَشْجَارَ". "وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الْعُشْبُ؟" "اللَّهُ خَلَقَ الْعُشْبَ". "وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟" "اللَّهُ خَلَقَنِي". "حَسَنًا إِذَنْ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ اللَّهُ؟" وَكَانَ الْجَوَابُ الْعَمِيقُ الَّذِي قَدَّمَهُ الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ هُوَ: "اللَّهُ خَلَقَ نَفْسَهُ". قَدْ يَبْدُو الْجَوَابُ جَيِّدًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ صَحِيحًا. فَحَتَّى اللَّهُ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ، لِأَنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، أَيْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ وَأَلَّا يَكُونَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا. أَدْرَكَ هَامِلِتْ هَذَيْنِ الْخِيَارَيْنِ جَيِّدًا فَقَالَ: "أَكُونُ أَوْ لَا أَكُونُ". فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ الْخِيَارَانِ مَعًا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ وَدَاخِلِ الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا.

لِتَر مَعًا الْآنَ كَيْفَ صِيغَتْ نَظَرِيَّاتُ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الْمَاضِي. إِحْدَى الْمَحَاوَلَاتِ الْأَكْثَرِ انْتِشَارًا لِاسْتِخْدَامِ مَفْهُومِ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ - كَبَدِيلٍ عَنِ فِكْرَةِ خَلْقِ كَائِنٍ أَرْزِيٍّ ذَاتِيَّ الْوُجُودِ لِلْكَوْنِ - ظَهَرَتْ خِلَالَ عَصْرِ التَّنْوِيرِ. فَمَعَ أَنَّ حَرَكَةَ التَّنْوِيرِ لَمْ تَكُنْ مُتَجَانِسَةً فِي فَرَضِيَّاتِهَا، كَانَ بَعْضُ مُفَكِّرِي التَّنْوِيرِ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ، وَالبَعْضُ الْآخَرُ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ. لَكِنَّ فِي الْحَرَكَةِ الْمَوْسُوعِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، عَارِضَ أَشْخَاصٍ مِثْلَ دِيدِيرُو وَهُولْبَاكِ فِكْرَةَ وُجُودِ اللَّهِ بِشِرَاسَةٍ. وَبِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، كَانَ الْمَبْدَأُ الْأَسَاسِيُّ لِلتَّنْوِيرِ الَّذِي اجْتَا حَ كُلِّ أُمَّةٍ أَوْ رُوبًا هُوَ أَنَّهُ الْآنَ بِمَجِيءِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، لَمْ تَعُدْ فَرُضِيَّةُ اللَّهِ ضَرُورِيَّةً كَتَفْسِيرٍ أَوْ تَعْلِيلٍ كَافٍ لِوُجُودِ الْكَوْنِ. وَقَالَ الْمَوْسُوعِيُّ، مِثْلًا، إِنَّهُ بَدَلًا مِنْ فَرُضِيَّةِ وُجُودِ اللَّهِ، الَّتِي كَانَتْ الْأَجْيَالُ السَّابِقَةُ تَعْتَبِرُهَا ضَرُورَةً مَنْطِقِيَّةً لِتَفْسِيرِ الْوَاقِعِ الَّذِي نَرَاهُ الْآنَ، يُمَكِّنُ الْآنَ التَّخَلِّيَ عَنْهَا دُونَ خَوْفٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ، "لِأَنَّنا صِرْنَا نَعْلَمُ الْآنَ"، عَلَى حَدِّ تَعْيِيرِ الْمَوْسُوعِيِّينَ الْفَرَنْسِيِّينَ، "أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمَادِّيَّةَ فِي الْكَوْنِ تُوجَدُ مِنْ خِلَالِ مَا يُعْرَفُ بِالتَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ" - التَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ.

التَّوَلَّدُ التَّلْقَائِيُّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ بِبَسَاطَةٍ تُوجَدُ تِلْقَائِيًّا، فَجَاءَتْ، دُونَ الْمُرُورِ بِأَيَّةِ مَرَحَلَةٍ تَطَوُّرٍ، لَكَيْتَهَا فَقَطَّ تُوجَدُ. وَنَشَأَتْ الْفِكْرَةُ حِينَ رَأَى الْبَعْضُ بَرَكَ الْوَحْلِ الَّتِي تَظْهَرُ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا، فَنَظَرُوا إِلَى بَرَكَ الْوَحْلِ، وَرَأَوْا بَيْضَ سَمَكٍ صَغِيرٍ أَوْ صَفَادٍ صَغِيرَةٍ، فَقَالُوا: "انظروا ما حدث في بركة الوحل، قد خرجت حياة تلقائياً من بركة الوحل"، ولم يفكروا في أن العصفير تحمل الأشياء وتلقيها في الوحل، إلى آخريه. فلم تكن أسباب ظهور الصفاد مريئة بالعين المُجَرَّدَةِ. وَهَكَذَا، فِي فِتْرَةٍ مِنَ التَّارِيخِ، آمَنَ الْبَعْضُ بِفِكْرَةِ "ex nihilo" - أَي بَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَأْتِي مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا. وَبِذَلِكَ، جَرَى تَجَاهُلُ قَانُونِ الْعِلْمِ الْأَسَاسِيِّ، وَهُوَ "ex nihilo nihil fit". دَعَوْنِي أَدُونُ ذَلِكَ - ex nihilo nihil fit. مِنَ اللَّأ شَيْءٍ، لَا شَيْءٌ يَأْتِي. وَسَبَبُ وُجُودِ هَذِهِ الْفَرَضِيَّةِ الْبَدِيهِيَّةِ فِي الْعِلْمِ، بِأَنَّ مِنَ اللَّأ شَيْءٍ، لَا شَيْءٌ يَأْتِي، هُوَ أَنَّ الْعَالَمَ يُدْرِكُ أَنَّهُ مِنَ اللَّأ شَيْءٍ لَا شَيْءٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِي. فَهُوَ لَا يَأْتِي لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِي. فَالْأ شَيْءٌ لَا يُثْمِرُ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّأ شَيْءٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُثْمِرَ شَيْئًا. وَسَتَنْتَظِرُ إِلَى ذَلِكَ مُجَدِّدًا بِأَشَدِّ تَفْصِيلٍ بَعْدَ قَلِيلٍ. لَكِنَّ هَذَا الْمَبْدَأَ قُوبِلَ بِالْمُعَارَضَةِ فِي عَصْرِ التَّنْوِيرِ مِنْ خِلَالِ مَفْهُومِ التَّلْقَائِيِّ. فَالْأَشْيَاءُ تُوجَدُ فَجَاءَةً مِنْ تِلْقَاءِ دَاتِهَا.

أَتَذَكَّرُ حِينَ كُنْتُ فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ أَسَاتِدَةَ الْعُلُومِ يَسْتَخِفُّونَ بِمَبَادِيِ التَّلْقَائِيِّ، وَيُخْبِرُونَنَا بِأَنَّهُ لَمْ يَعْضُدْ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِالتَّلْقَائِيِّ. لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ تَحَرَّوْا الدَّقَّةَ فِي تَفْصِيلِهِمْ لِمَا يَقُولُهُ النَّاسُ، لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ هُنَاكَ بَعْضُ الْإِعْتِقَادِ مِنْ حَوْلِنَا فِي سَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ التَّلْقَائِيِّ. لَكِنَّ مَا كَانَ أَسَاتِدَةُ الْعُلُومِ يُحَاوِلُونَ تَعْلِيمَنَا إِيَّاهُ فِي الْمَدْرَسَةِ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الَّتِي صَارَتْ بَارِزَةً فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ - عَنْ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ تُوجَدُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا - انْكَشَفَ زَيْفُهَا. كَانَ يَنْبَغِي كَشْفُ زَيْفِهَا فِي لِحْظَةِ النُّطْقِ بِهَا، لِأَنَّهَا انْطَوَتْ عَلَى اسْتِحَالَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ.

لَكِنَّ أَتَذَكَّرُ أَمْرًا أَذْهَبِي مِنْهُ بَضْعَ سَنَوَاتٍ، حِينَ قَرَأْتُ مَقَالًا بِقَلَمِ عَالِمٍ مِنَ السَّاحِلِ الْعَرَبِيِّ، حَائِزٍ عَلَى جَائِزَةِ بُولِينْزِر، أَسْفُ، عَلَى جَائِزَةِ نُوبَلٍ، حَوْلَ مَفْهُومِ التَّلْقَائِيِّ. وَقَالَ: "بَلَّغْنَا الْآنَ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ مَرَحَلَةً لَمْ يَعْضُدْ بِإِمْكَانِنَا فِيهَا تَأْيِيدَ مَفْهُومِ التَّلْقَائِيِّ". ثُمَّ تَابَعَ قَائِلًا إِنَّ "الْوَاقِعَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَلَّدَ مِنْ ذَاتِهِ تِلْقَائِيًّا. وَعَلَيْنَا اسْتِبْدَالُ مَفْهُومِ التَّلْقَائِيِّ بِفِكْرَةٍ عِلْمِيَّةٍ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَطَوُّرًا"، دَعَاهَا، وَلَسْتُ أَمْرَحُ، بِاسْمِ "التَّلْقَائِيِّ التَّدْرِيجِيِّ". قَرَأْتُ ذَلِكَ وَضَحِكْتُ، لَكِنِّي قُلْتُ: "مَهْلًا، هَذَا الرَّجُلُ حَائِزٌ عَلَى جَائِزَةِ نُوبَلٍ فِي الْعُلُومِ. كَيْفَ لِرَجُلٍ كَهَذَا أَنْ يَتَفَوَّهَ بِمِثْلِ هَذَا الْهَرَاءِ؟ أَحْيَانًا، كَمَا أَزْدَادَ عِلْمُكَ، يَصِيرُ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تُدْلِي بِتَصْرِيحَاتٍ بِلَا مَعْنَى وَتَنْجُو بِفِعْلَتِكَ". التَّلْقَائِيُّ التَّدْرِيجِيُّ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لَا يُمَكِّنُكَ الْحُصُولُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ اللَّأ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، بَلْ يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ وَقْتًا. عَلَيْكَ أَنْ تَنْتَظِرَ أَنْ يُثْمِرَ اللَّأ شَيْءٌ شَيْئًا مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّةِ تَطَوُّرٍ. قَدْ يَسْتَعْرِقُ الْأَمْرُ دُهورًا وَدُهورًا، لَكِنَّ إِذَا تَحَلَّيْتَ بِصَبْرِ كَافٍ، فَإِنْ أَجَلًا أَوْ عَاجِلًا، يُمَكِّنُ لِشَيْءٍ مَا أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ.

مُجَدِّدًا، عِنْدَ هَذِهِ الثَّقُفَةِ يَصْطَدِمُ الْفَلَسَفَةُ وَالْعُلَمَاءُ مَعًا، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ تَرَكَوا بِدَلِكِ نِصْفِ الْمُنْهَجِ الْعِلْمِيِّ فِي مَكَانٍ مَا فِي الْمُخْتَبِرِ. أَوْ رَبَّمَا عِنْدَمَا أَوْقَفُوا سَيَّارَاتِهِمْ فِي مَوْقِفِ السِّيَّارَاتِ، أَخَذُوا مَعَهُمْ نِصْفَ الْمُنْهَجِ الْعِلْمِيِّ - وَهُوَ التَّصْفُفُ التَّجْرِبِيُّ، أَوْ التَّصْفُفُ الْإِسْتَفْرَائِيُّ - تَارِكِينَ الْجُزْءَ الْإِسْتِدْلَالِيَّ فِي صُنْدُوقِ السِّيَّارَةِ. وَلِذَلِكَ، عَلَيْهِمُ الْعُودَةُ، وَفَتْحُ الصُّنْدُوقِ، وَمُرَاجَعَةُ تِلْكَ التَّصْرِيحَاتِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى الْمُنْطَقِيَّةِ - التَّوَلَّدَ التَّلْقَائِيُّ التَّدْرِيجِيُّ.

إِذَا قَالَ لِي أَحَدُهُمْ: "لَا أَحَدٌ يُؤْمِنُ حَقًّا بِالْخَلْقِ الدَّائِي"، أُحِبُّهُ بِأَنَّ التَّوَلَّدَ التَّلْقَائِيُّ التَّدْرِيجِيُّ، أَوْ التَّوَلَّدَ التَّلْقَائِيُّ فَحَسَبُ، يَسْتَحْضِرُ إِلَى ذَهْنِي الْمَقُولَةَ الْقَدِيمَةَ: "مَهْمَا كَانَ اسْمُ الزُّهْرَةِ، فَهِيَ تَبْقَى زَهْرَةً". فَإِذَا حَلَلْتُ مَفْهُومَ التَّوَلَّدِ التَّلْقَائِيِّ، سَتَكْتَشِفُ أَنَّهُ مُحَاوَلَةٌ مُتَطَوَّرَةٌ لَوْصِفِ فِكْرَةَ الْخَلْقِ الدَّائِي.

حِينَ أُطْلِقَتْ مَرْكَبَةُ هَابِلِ الْفَضَائِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا مَشْرُوعًا عِلْمِيًّا مُهِمًّا لِلْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ، كَانَ هُنَاكَ بَثٌّ إِدَاعِيٌّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَحَدَّثَ فِيهِ عَالِمٌ بَارِزٌ وَشَهِيرٌ لِلْعَايَةِ فِي الْفِيزِيَاءِ الْفَلَكِيَّةِ عَنِ أَهْمِيَّةِ "الرِّيَادَةِ الْحَالِيَّةِ لِإِدْرَاكِتَنَا لِلْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ، وَاتِّسَاعِ آفَاقِنَا بِفَضْلِ هَذِهِ التَّكْنُولُوجِيَا الْحَدِيثَةِ". وَتَابَعَ مُبَيِّنًا كَيْفَ بَدَأَ الْكُونُ، بِرَأْيِهِ، "مُنْذُ نَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرٍ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِليَارِ سَنَةٍ"، بِحَسَبِ قَوْلِهِ، "حِينَ تَفَجَّرَ الْعَالَمُ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ". هَذَا مِثَالٌ لِاسْتِخْدَامِ عَالِمِ فِيزِيَاءٍ فَلَكَيَّةٍ لِلْعَةِ مُتَأَثِّرَةٍ بِالْفَلَسَفَةِ. فَكَلِمَةُ "وُجُودٍ" أَوْ "كَيْنُونَةٍ" مُفْعَمَةٌ بِالْمُحْتَوَى الْفَلَسَفِيِّ. فَقَدْ تَحَدَّثَ عَنِ أَصْلِ الْكُونِ، وَوَضَعَ لَهُ إِطَارًا زَمَنِيًّا - مُنْذُ نَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرٍ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِليَارِ سَنَةٍ، تَفَجَّرَ الْكُونُ. لَمْ يَقْصِدْ أَنَّ الْكُونُ تَفَجَّرَ إِلَى شَكْلِهِ الْحَالِيِّ. فَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ قَبْلَ نَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرٍ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِليَارِ سَنَةٍ، كَانَ لِلْكَوْنِ شَكْلٌ مُعَيَّنٌ - أَيْ كَانَ مَوْجُودًا، وَحَقِيقِيًّا، وَكَانَتْ هُنَاكَ مَادَّةٌ، أَيْ كَانَ لَهُ كَيْنُونَةٌ - ثُمَّ تَعَيَّرَ جَدْرِيًّا بِفِعْلِ الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ، مَثَلًا، مُنْذُ نَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرٍ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِليَارِ سَنَةٍ، يَخْتَلِفُ تَمَامَ الْإِخْتِلَافِ عَمَّا قَصَدَهُ عَالِمُ الْفِيزِيَاءِ هُنَا، الَّذِي اسْتَحْدَمَ التَّعْبِيرَ "تَفَجَّرَ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ". أَثَارَ الْأَمْرِ فُضُولِي، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: "مَاذَا يُقْصَدُ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ تَفَجَّرَ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ؟ وَكَيْفَ كَانَ قَبْلَ الْإِنْفِجَارِ؟ هَلْ كَانَ عَكْسَ الْوُجُودِ أَوْ تَقْيِضَ الْوُجُودِ؟ بِحَسَبِ التَّعْبِيرِ الْفَلَسَفِيِّ، هَذَا هُوَ عَدَمُ الْوُجُودِ، أَيْ الْمُرَادُفُ لِلْعَدَمِ أَوْ اللَّاشَيْءِ".

إِذْنِ، نَرَى أَنَّ مَجِيءَ شَيْءٍ مِنَ اللَّاشَيْءِ يَتَطَلَّبُ لَيْسَ مُجَرَّدَ وَقْتٍ، وَإِنَّمَا يَتَطَلَّبُ انْفِجَارًا صَحْمًا. وَإِذَا عُدْتُمْ بِالزَّمَنِ فَتْرَةً كَافِيَةً - رَبَّمَا ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ مِليَارِ سَنَةٍ - قَدْ تَعَثَّرُونَ عَلَى هَذَا الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ، حَيْثُ وَجَدَ الْوَاقِعَ مِنَ اللَّاشَيْءِ وَاقِعًا. هَذَا، أَيُّهَا السَّادَةُ، هُرَاءُ فِلْسَفِيٍّ، وَلَا عَقْلَانِيَّةً بَحْتَةً. وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِذَا تَسَنَّتْ لِي فُرْصَةٌ مُحَاوَرَةِ عَالِمِ الْفِيزِيَاءِ الَّذِي أَدْلَى بِهَذَا التَّصْرِيحِ، سَيْسَارِعُ - أَنَا مُقْتَنِعٌ بِذَلِكَ، وَأَرْجُو ذَلِكَ - سَيْسَارِعُ إِلَى الْقَوْلِ: "قَدْ أَسَأْتُ التَّعْبِيرَ. كُنْتُ أَقْصِدُ أَنَّ حَالَةَ سَابِقَةً مِنَ الْوُجُودِ تَعَبَّرَتْ بِإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ أَقْصِدْ أَنَّ أَوْجِي بِأَنَّ الْإِنْفِجَارَ حَدَثَ مِنَ اللَّاشَيْءِ إِلَى شَيْءٍ".

أَرْجُو وَأَثِقُ أَنَّ هَذَا مَا سَيَقُولُهُ عَالِمُ الْفِيزِيَاءِ، إِذَا تَسَنَّتْ لَنَا فُرْصَةٌ مُحَاوَرَتِهِ، وَأَنَّهُ يُشْبِهُ أَيَّ عَالِمٍ آخَرَ قَدْ يَتَفَوَّهُ بِأُمُورٍ فِي تَهَوُّرٍ وَدُونَ تَفَكِيرٍ مُتَمَعِّنٍ. لَكِنَّ انْتَبَهُوا إِلَى كَلَامِ أَشْخَاصِ بَارَزِينَ بِقَدْرِ عَالِمِ الْفِيزِيَاءِ الْفَلَكِيَّةِ هَذَا.

إِذَنْ، نَسْمَعُ عَنِ التَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ، وَالتَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ التَّدرِيجِيِّ، وَانْفِجَارِ الْكُونِ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ. لَكِنَّ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، الشَّكْلُ الْأَكْثَرُ شُبُوحًا لِلْخَلْقِ الدَّائِي، الَّذِي نَرَاهُ فِي الثَّقَافَةِ الْحَدِيثَةِ، هُوَ فِكْرُهُ الْخَلْقِ عَنِ طَرِيقِ الْمُصَادَفَةِ، أَيَّ إِنَّ الْكُونِ يُوجَدُ بِوَاسِطَةِ قُوَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تُنْسَبُ إِلَى الْمُصَادَفَةِ. وَعَادَةً مَا تَكُونُ الْمَعَادَلَةُ هِيَ: الْمَكَانُ زَائِدُ الْوَقْتِ زَائِدُ الْمُصَادَفَةِ.

لَيْسَ لَدَيْ وَقْتٍ فِي مُحَاضَرَةِ الْيَوْمِ لِنَتَنَاوَلَ هَذَا الْجَانِبَ تَحْدِيدًا مِنَ الْخَلْقِ الدَّائِي. فَيَسَبَبِ اسْتِخْدَامِهِ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ وَمُتَكَرِّرٍ، أَوْدُ تَنَاوُلُهُ فِي مُحَاضَرَةٍ مُنْفَصِلَةٍ (أَلْفَتْ كِتَابًا كَامِلًا عَنِ هَذَا الْمَوْضُوعِ بِعُنْوَانِ "Not a Chance")، لِنَرَى عَلاَقَتَهُ بِالْمَفَاهِيمِ الْحَدِيثَةِ عَنِ مِيكَانِيكِيَا الْكَمِّ وَالْفِيزِيَاءِ، وَعَغيرِ ذَلِكَ، وَهِيَ النَّظَرِيَّاتُ الَّتِي تَمِيلُ إِلَى إِعْلَامِنَا بِأَنَّهُ عَلَى الْمُسْتَوَى دُونَ الدَّرَجِيِّ، لَدَيْنَا بِالْفِعْلِ أدِلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ عَلَى مَجِيءِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ، بِنَاءً عَلَى مَبْدَأِ الرِّيْبَةِ لِهَائِرِزْنِبَرْغٍ، وَبَعْضِ النَّظَرِيَّاتِ الْأُخْرَى الَّتِي قَدَّمَهَا نِيلزُ بُورُ وَآخَرُونَ.

سَنَتَنَاوَلُ ذَلِكَ بِأَشَدِّ تَفْصِيلٍ فِي الْمَحَاضَرَةِ الْمُقْبِلَةِ، لَكِنِّي الْآنَ سَأُلْحِصُ مَا سَبَقَ. نَدْرُسُ هُنَا أَرْبَعَةَ احْتِمَالَاتٍ لِتَفْسِيرِ وُجُودِ أَيِّ شَيْءٍ. وَتَدَكَّرُوا أَنَّ أَقْدَمَ سُؤَالٍ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْعِلْمِ هُوَ: "لِمَ يُوْجَدُ شَيْءٌ بَدَلًا مِنْ لَا شَيْءٍ؟" وَحَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ مَا أَوْدُ أَنْ تُفَكَّرُوا فِيهِ، وَهِيَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يُوْجَدِ فِيهِ أَيُّ شَيْءٍ، أَيَّ عَدَمِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ - لَا إِلَهَ، وَلَا مَادَّةَ، وَلَا شَيْءَ - فَمَا الَّذِي كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُوْجَدَ الْآنَ؟ وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يُوْجَدِ فِيهِ أَيُّ شَيْءٍ، فَالْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ اتِّبَاعَهَا لِتَفْسِيرِ وُجُودِ شَيْءٍ هِيَ نَوْعٌ مِنَ الْخَلْقِ الدَّائِي، أَيَّ مَجِيءُ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ. وَلَا يُمَكِّنُنِي نَسْبُ هَذِهِ الْمُهْمَةِ، الْمُمَثَّلَةِ فِي أَنْ يَخْلُقَ شَيْءٌ نَفْسَهُ، إِلَى اللَّهِ، أَوْ إِلَى أَشْبَاحٍ، أَوْ عُلَمَاءَ، أَوْ إِلَى حَمْضِ أَمِينِي، أَوْ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أَنْدُرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلَّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُونُ" وَ"أَدَهْسِنِي الْأَمَّ".